"ثقافة العصر الجاهليّ"

(مصادرها – مظاهرها – أنواعها)

د. غادة عفيفى(*)

١– تمهيد:– ماهية الثقافة، ومفهوم الجاهلية وحدود ذلك العصر.

أ– الثقافة:–

ظهرت تعريفات عديدة لمفهوم الثقافة في مختلف الدراسات الاجتماعية ، وعلى الرغم من كثرة هذه التعريفات فإنها في جوهرها تكاد تتحدث عن نقطة مركزية واحدة تدور حول السلوك الاجتماعي ومحدداته مع الرجوع في ذلك إلى عوامل موضوعية (اختلف في تحديدها بين مفكر وآخر) وعوامل ذاتية هي في حقيقتها منبثقة من ذات العوامل الموضوعية"(١).

وقبل أن نقدم بعضا من هذه التعريفات نجد سؤالاً يطرح نفسه عن مفهوم الثقافة في الفكر العربي. فمختلف المعاجم العربية سواء القديم منها أو الحديث، تدور تعريفاتها حول المعنى اللغوي للكلمة، فلسان العرب يقول: " ثقفَ الشيءَ وهو سرعة التعلم وثقفت الشيءَ حذَقته".

وفي المعجم الوجيز: "ثقفَ العلمَ والصناعةَ حذَقهما ....، وثقَّفَ الإنسانَ: أدبه وهذبه وعلمه ، وتثقف تعلم وتهذب ....، الثقافة: العلوم والمعارف والفنون التي يطلب العلم بها والحذق فيها ".

(*) مدرس بقسم اللغة العربية – كلية الألسن – جامعة عين شمس.

وعموما فإن المعاجم العربية التي تورد مادة " ثقافة " تدور حول معنى محدد هو " سرعة الفهم والحذق " وهذه التعريفات العربية (القائمة علي الأساس اللغوي للمفهوم) لا تتفق مع مصطلح الثقافة الذي يزخر به العديد من الدراسات الاجتماعية . فمصطلح الثقافة ذو جذور أوروبية وقد ارتبط بنشأة علم الاجتماع وتطوره .

أمـــا عـــن بـــيان ماهية الثقافة اصطلاحا، فإننا سوف نقف عند بعض المشهور منها نظراً لكثرة الآراء وتعددها في هذا الأمر، فنقول:

قـــدم تايلور TYLOR العالم البريطاني، مفهوم الثقافة بأنه " هو ذلك الكـــل المركب الذي يشتمل علي المعرفة والمعتقدات، والفن والأخلاق والقانون والعـــادات، وأي قـــدرات أخرى أو عادات يكتسبها الإنسان بصفته عضواً في المجتمع[٢] ويمثل هذا التعريف القاعدة التي قامت عليها جميع التعريفات الثقافية فيما بعد ، بغض النظر عن اتجاهات هذه التعريفات.

فقـــد عرف ثورنفالد THURNVALD الثقافة بأنها "مجموعة التقاليد والتكـــيفات المـــتعلقة بالأسرة والشكل (التكوين) السياسي، والاقتصاد، والعمل والأخـــلاق، والعـــادة، والقانـــون، وطـــرق التفكيـــر"[٣] وقـــد ذهـــب كلينبرج O.KLINBERG إلي القول بأن "الثقافة هي ذلك الكل المتعلق بأسلوب الحياة كما تحدده البيئة الاجتماعية " [٤] .

واذا أردنـــا أن نخرج بتعريف نتبناه في هذه الدراسة ، فإننا سنكون بلا شـــك فـــي إطار التعريفات السابقة فالثقافة هي مجموعة القيم والمبادئ والمثل المكتسبة والمنقولة والتي من خلالها يتفاعل الإنسان في إطار تاريخي اجتماعي معين ، مع الآخرين من حوله .

ب- العصر الجاهلي :-

يـــبدأ ذلـــك العصـــر قـــبل الإسلام بنحو قرنين تقريباً، وينتهي بظهور الإســـلام. وهي الفترة التي ورثنا عنها الشعر الجاهلي مكتملاً في لغته راقياً في معانـــيه، كما ورثنا عنها اللغة العربية والخط العربي وقد عاش عرب الجاهلية

قبل الإسلام، في بوادي شبه جزيرة العرب، وفي مدنها الباقية، إذ كان يغلب عليهم التنازع والتقاتل والعداوة والثأر والتعاون علي الإثم والعدوان ... كما كان يغلب علي جماعات منها أحياناً وأد البنات وشرب الخمر ولعب الميسر وأخذ الربا والاسراف في الكرم. (٥) "حتى سمى هذا العصر عصراً جاهلياً

والواضح أن لفظة الجاهلية التي أطلقت علي ما كانت عليه جزيرة العرب قبل الإسلام، ليست مشتقة من الجهل الذي ضد العلم والمعرفة، فقد وردت هذه اللفظة في القرآن الكريم في أربعة مواضع حيث يقول الله تعالى:-

- "و طائفة قد أهمتهمْ أنفسهم يظنون بالله غيرَ الحق ظن الجاهليةِ "

آل عمران (٣ : ١٥٤)

- "أفحكمَ الجاهليةِ يبغونَ ومن أحسن من اللهِ حكما لقوم يوقنون "

المائدة (٥ : ٥٠)

- "وقرنَ في بيوتكن ولا تبرجنَ تبرجَ الجاهلية الأولى"

الأحزاب (٣٣ : ٣٣)

- "إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية "

الفتح (٤٨ : ٢٦)

فالجاهلية التي وصف الله بها العرب قبل الإسلام هي "العنف والحدة والغلو في تقدير الأمور، كما كان العرب يفعلون، يغلون في الكرم حتى يكون سفهاً أو سرفاً، ويغلون في الحفاظ والثأر حتى يكون عدواناً، ويغلون في الشجاعة حتى تكون تهوراً، وهكذا ، والقصد هو السبيل السوي في كل شئ، وهو الذي جاء به الإسلام"(٦) ويؤيد هذا المعنى للكلمة قول الرسول صلى الله عليه وسلم: "ليس منا من ضرب الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية ".

كما ورد استعمال لفظ الجهل كثيراً في الشعر الجاهلي في هذا المعنى، ومن ذلك قول عمرو بن كلثوم :-

ألا لا يجهلنْ أحدٌ علينا فنجهلَ فوق جهلِ الجاهلينا

فالواضـــح من هذه النصوص جميعاً أن كلمة الجاهلية استخدمت للدلالة علي "السفاهة التي كانت مؤدية إلي الهمجية وانتشار الضلالة وعبادة الأوثان ، والاســراف فـــي القتل واستباحة الزنا والخمر، وانتهاء ذلك كله بتأريث العداوة وقيام الحروب وتفرق القبائل " (٧) .

٢ – أبرز محددات الثقافة في العصر الجاهلي :–

أ– المحدد الجيبوبولوتيكي GEOPOLITICAL FACTOR :

ويقصد به العامل الجغرافي وتأثيره سلباً وايجاباً علي الوضع السياسي لإقليم ما.

فإذا نظرنا إلي الوضع السياسي العام في أوائل القرن السادس للميلاد، نجـد أن شبه الجزيرة العربية كانت محاطة بقوتين متقابلتين ومتصارعتين: قوة المســيحية في الغرب، ويمثلها القسم الشرقي من الإمبراطورية الرومانية والذي عــرف باســم "الإمبراطورية الرومانية الشرقية" أو "الإمبراطورية البيزنطية" وعرفه العرب باسم "مملكة الروم" وقد اتخذت هذه الإمبراطورية من النصرانية ديناً رسمياً للدولة عام (٣١٣ م) .

وقــوة المجوسية في الشرق، ويمثلها الدولة الساسانية أو دولة العجم في فارس والتي أسسها أردشير الأول (٢٢٦ – ٢٤١ م)،" وكان لكل واحدة منهما مطامــع فـــي الاستعمار والتوسع وكان رجال الدين في كلتيهما يبذلون الجهود لنشــر الدعــوة إلي العقيدة التي يؤمنون بها، مع ذلك ظلت شبه الجزيرة وكأنها واحـــة حصـــينة آمنة من الغزو الا في بعض أطرافها، آمنة من انتشار الدعوة الدينـــية، مســـيحية أو مجوســـية، الا في قليل من قبائلها وهذه ظاهرة تبدو في الـــتاريخ عجيـــبة. لولا ما يفسرها من موقع بلاد العرب ومن طبيعتها"(٨) ومن جغرافية هذه البلاد .

يقول ديجول "الجغرافيا قدر الشعوب" ولعل هذه المقالة أصدق ما تكون انطـــباقا علـــي شبه جزيرة العرب "فشبه جزيرة العرب مستطيل غير متوازي الاضـــلاع، شماله فلسطين وبادية الشام، وشرقه الحيرة ودجلة والفرات وخليج

فارس، وجنوبه المحيط الهندي وخليج عدن، وغربه بحر القلزم (البحر الأحمر). فهو إذاً حصين بالبحر من غربه وجنوبه، حصين بالصحراء من شماله، وبالصحراء وخليج فارس من شرقه، وليست هذه المناعة هي وحدها التي عصمته من الغزو الاستعماري أو الغزو الديني، بل عصمه كذلك ترامي أطرافه. فطول شبه الجزيرة يبلغ أكثر من ألف كيلو متر وعرضه يبلغ نحو الألف من الكيلومترات.

وعصمه أكثر من هذا جذبٌ جديب صرف عين كل مستعمر عنه. فليس في هذه الناحية الفسيحة من الأرض نهر واحد، وليس لأمطارها فصول معروفة ويمكن الاعتماد عليها وتنظيم الصناعة إياها. وفيما خلا اليمن الواقعة جنوب شبه الجزيرة والممتازة بخصب أرضها وكثرة نزول المطر فيها، فسائر بلاد العرب جبال ونجود وأودية غير ذات زرع وطبيعة جرداء لا تيسر الاستقرار ولا تجلب الحضارة وهي لا تشجع علي حياة غير حياة البادية"[٩] .

فالعامل الجغرافي أو الحوائل الطبيعية من بحار وجبال ومناخ قاري صحراوي، ومن جدب وقلة ماء، ومن صحراء مترامية الأطراف، ذات تأثير علي الوضع السياسي في منطقة شبه الجزيرة، حيث تحولت هذه الصحراء إلي "خط الدفاع الأول الأمامي الذي يقيه ضد العدو الزاحف عليه من العالم الخارجي. وتنقلب ندرة الماء وشدة الحر ووعورة المسالك وفقدان الطعام – وهى كلها خصوم للإنسان في الظروف العادية – تنقلب إلي أقوى الحلفاء له في زمن الخطر. فلا عجب إذا عرفنا أن العربي لم يطأطئ رأسه بتاتاً تحت تأثير نير أجنبي"[١٠] وأن الصحراء كانت الرقيب الأمين علي تقاليده، والحافظة للغته الخالصة ودمه النقي وجنسه السامي، فطراز ثقافته دائماً واحد، لأنه بعيد عن غزو الآراء والعادات الأجنبية .

وإذا كان للعامل الجغرافي ايجابياته علي الوضع السياسي في شبه الجزيرة العربية، فإن هناك أثاراً سلبية لا يمكن اغفالها. إذ " ظل البدوي باعتباره جنساً من أجناس الناس هو اليوم كما كان بالأمس لا يخضع لقوانين

التقدم والتطور التي يخضع لها سائر الناس. فتراه يعيش كما حتمت عليه ظروفه في خيام ويرعى غنمه وماعزه، لقد قامت إمبراطوريات ثم دالت في أرض الهلال الخصيب، ولكنه في فيافي الصحراء القاحلة ظل البدوي هو هو لم يشبه أي تغيير"[١١] ظل محاصراً ببحاره وجباله وصحرائه الواسعة المجدبة، مما انعكس أثره علي الوضع السياسي داخل الجزيرة العربية، حيث أدى ذلك إلي عدم نشأة الدول بالجزيرة وعدم وجود أنظمة سياسية بالمفهوم العلمي للكلمة، حقيقة أن هناك "من هؤلاء العرب من أصاب لونا من الاستقرار السياسي والاجتماعي، وقدراً من الحضارة والتمدن، في سواد العراق، ومشارف الشام، وجنوب الجزيرة، وبعض حضر الحجاز، وعلي الأخص في مكة، توافرت له بعض خواص الدويلة أو الإمارة، غير أن هذه الحياة المنتظمة – نوعاً – لم تكن تمثل حياة الغالبية العظمى من الشعب العربي في العصر الجاهلي، فضلاً عن أنها كانت أحدث وجوداً من النظام البدوي القبلي الذي ساد الحياة العربية الجاهلية " .[١٢]

ومن هنا نستطيع القول إن هناك ارتباطاً وثيقاً بين العامل الجغرافي في شبه الجزيرة العربية والوضع السياسي لها. حيث أصبحت كل "قبيلة وحدة قائمة بنفسها تقضى حاجاتها وتستبد وتعتبر كل قوم أو قبيلة أخرى فريسة شرعية يحل نهبها بل وقتلها"[١٣] .

ب- المحدد الاقتصادي :

تشمل بلاد العرب فريقين من السكان: بدو وحضر .

أما البدو فيعيشون في الصحراء رعاة، يحبون الحرب ويغير بعضهم علي بعض. وأما الحضر فيسكنون القرى (المدن) ويعيشون علي شيء من الزراعة في الأقل، وتجارة القوافل في الأكثر حتى جنوا من ذلك ثروة عظيمة، " وكانت متاجرهم من فارس والحبشة واليمن، إلي الشام والعراق ومصر وأشهر مدنهم التجارية كانت أم القرى (مكة) والطائف ويثرب ومدين. وهذه في الحجاز، ثم دومة الجندل في نجد، وسواها.[١٤]

وكان لمكة وضع اقتصادي متميز في الجزيرة العربية، حيث أثرت من التجارة ثراءً عظيماً لوقوعها جغرافياً "في منتصف الطريق التجاري بين الشام واليمن، وفي نهاية الطريق التجاري القادم من الحيرة، مما أتاح لها وضعا اقتصادياً متميزاً تحولت معه إلي المدينة التجارية الأولى في الجزيرة كلها، ونتيجة لظهور طبقة من كبار التجار من أصحاب الملايين يتحكمون في اقتصاد الجزيرة كلها، ويمسكون في أيديهم بأزمة الحياة الاقتصادية فيها، قامت حول مكة مجموعة من الأسواق تلتقى عندها القوافل التجارية، ويتجمع فيها تجار الجزيرة من شتى القبائل، وبخاصة في مواسم الحج حيث تفد القبائل من شتى الأرجاء لأداء الشعائر الدينية لأصنامها المنصوبة في الكعبة أو حولها"(١٥).

كما كان هناك مصدر آخر يدر علي سكان المدن أرباحاً طائلة وهو الربا " وقد كان البدوي يستدين ثم لا يستطيع أن يفي بالربا وحده. وكم من دين قليل أدى المدين عليه الربا عشرات السنين، ثم أصبح بعد ذلك أكثر مما كان! وأخيراً وضع الرسول (ألغى) ربا الجاهلية كله في خطبته في حجة الوداع سنة ١٠ هـ (٦٣٢ م)"(١٦) ومن هذا يتضح لنا مدى اختلال الأوضاع الاقتصادية بين البدو والحضر في شبه الجزيرة العربية، حيث اعتمد البدو في أسباب معيشتهم علي الرعي والإغارة، بينما أتيح لسكان الحضر قدر من سعة العيش بسبب اعتمادهم علي التجارة .

ج- المحدد الاجتماعي :

كانت القبيلة في العصر الجاهلي هي الوحدة الاجتماعية، وتتألف من ثلاث طبقات: أبناؤها وهم الذين يربط بينهم الدم والنسب، والعبيد: وهم الرقيق المجلوب من البلاد الأجنبية المجاورة وبخاصة الحبشة، والموالي: وهم عتقاؤها، ويدخل فيهم الخلعاء من أبناء القبائل المجاورة الذين يحتمون بها.

ونظرة القبيلة لهذه الطبقات الثلاث لم تكن نظرة واحدة، حيث كانت القبيلة تضع أبناءها في قمة السلم الاجتماعي، بينما نظرت لغيرها من الموالي

والعبيد نظرات اجتماعية متدنية لافتقادهم صلة النسب، فحرمتهم من الحقوق التي كان يمتلكها أبناء القبيلة الأصليون .

ويعسر تقدير إحصاء العرب في ذلك العهد " لاعتماد أولئك الأقوام علي الرحلة والتنقل في البوادي .. ولكننا نحسبهم لا يزيدون علي بضعة ملايين، أكثرهم من أهل البادية متفرقون قبائل وعشائر وأفخاذاً وبطوناً في الحجاز ونجد واليمن وتهامة وحضرموت وعمان والإحساء والبحرين وفي بادية الشام والعراق. يندر فيهم المتحضرون سكان المدن، إذ لم يكن يومئذ من المدن العامرة في جزيرة العرب غير مكة والمدينة والطائف بالحجاز، وصنعاء في اليمن وبعض المزارات في أواسط الجزيرة وبعض الثغور علي الشواطئ.[١٧]

لذلك فمعظم سكان الجزيرة العربية كانوا بدواً رحلاً، يعيشون عيشة التنقل والارتحال، يسكنون الخيام، ويرعون الأنعام والأغنام، أكثر طعامهم اللبن والتمر، وقليل من الشعير يكفيهم، وكانت الإبل عماد حياتهم، وأهم حيوان أعانهم علي احتمال هذه الحياة القاسية المجهدة، لأنه أصبر ما يكون علي الجوع والعطش واحتمال البرد والحر "والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون، ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون، وتحمل أثقالكمْ إلي بلدٍ لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إنَ ربكم لرءوف رحيم. " النحل (١٦ : ٥-٧)

هذه الحياة كما هو واضح ليست بالحياة السهلة اليسيرة، وخاصة أن الصحراء كانت مليئة بالمخاوف والمخاطر، إذ فيها غير قليل من الوحوش والسباع والحشرات والحيات، وفيها القفار الجرداء الزاخرة بالخنادق والمهاوي ورياح السموم، وفيها حنادس الليل المظلم المخيف التي كانت تلقى في روعهم بالخيالات والأوهام وما تمثل لهم من السعالي والجن والغيلان وفي تضاعيف ذلك كان العرب يتربص بعضهم ببعض، إذ كانت حياتهم حياة حربية دامية، وكاد أن لا يكون هناك حي أو عشيرة بل أسرة إلا وهي واترة موتورة"[١٨].

فالحياة قاسية مخيفة، وموارد الرزق فيها محدودة رعي للأنعام والأغنام والماعز، أو غزو وإغارة علي جماعات من البدو للاستيلاء علي مواشيها

غصباً، أو صيداً للوحش يقوم به فقراؤهم. رغم ذلك لم يكن العرب في الجزيرة العـربية متسـاوين في الرزق، بل كان في كل قبيلة سادة يملكون مئات الإبل وفقـراء محتاجون معدمون لا يملكون شيئاً، مما أدى إلي وجود ظاهرة الطبقية في المجتمع الجاهلي.

هذه هي الصورة العامة للحياة الاجتماعية في تلك الآونة، فإذا ما انتقلنا إلـي أهـم وحدة من وحدات هذا المجتمع وهي الأسرة، وجدنا العلاقة فيها بين الرجل والمرأة تقوم علي أساس الزواج، الذي تعددت أشكاله ما بين :-

- زواج المهر: الذي أقره الإسلام فيما بعد .
- زواج المتعة: ويشبه زواج المهر من كل وجه الا اشتراط المدة .
- زواج السـبى: وهو حق المحاربين المنتصرين في نساء المحاربين المغلوبين.
- زواج المقت: كان الجاهليون يرثون زوجات أبائهم، علي الا يتزوج أمه التي ولدته .
- زواج الإمـاء: أو الاسترقاق ويكون (بالشراء) حيث يشترى الرجل أمـة فـيكون لـه منها أولاد فتظل عنده أمة وأولادها منه عبيداً له وإماء. الا إذا شاء فأعتقها أو أعتقهم .

ولم يقيد الجاهلي نفسه بعدد النسوة اللواتي كان يتزوجهن في كل نوع من أنواع الزواج السابقة، بل كانوا يعددون بين الزوجات إلي حد غير معروف. وكان يطلقون، والطلاق بيد الرجل، الا أنه كان هناك نساء يشترطن أن تكون الفرقة بأيديهن.

وللرجل سلطان مطلق في الجزيرة العربية علي أهله، يملك عليهم حق الحياة والموت والرهن والبيع، لذلك كان الجاهليون يفضلون البنين علي البنات، لأن البنين يصبحون محاربين مدافعين عن القبيلة، بينما تحتاج البنات إلي من يدافع عنهن .

أما عن الإرث في الجاهلية فقد كان حقاً للرجال "الذين يركبون ويحملون السلاح، فالطاعنون في السن والصبيان لم يكن لهم حق في الإرث أما النساء فكان الرجال يرثون منهن ويرثونهن كما يرثون المتاع والأموال. ولذلك كانت القاعدة العامة في الجاهلية أن المرأة لا حق لها في إرث قريبها المتوفي، علي أن الأخبار وردت في أن المرأة في بعض القبائل كانت ترث أحياناً " (١٩) .

هذا حال العربي مع زوجته وأبنائه، أما مع أهله "فعلاقة أبناء الأسرة بأبناء القبيلة فجماعها مدلول هذه الكلمة الجاهلية:(انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً) علي ما بين أبناء العم من تنافس وتباغض. ولكن الواحد للقبيلة والقبيلة للواحد"(٢٠). فإذا ما تشعبت إلي بطون، بلغ العداء أشده فتراق الدماء وتبدأ المنافسة علي الرياسة والشرف وإن كان يجمعهم أصل واحد.

د- المحدد الحضاري :-

اتصل العرب بمن جاورهم مادياً وأدبياً، وإن كان هذا الاتصال أضعف مما كان بين الأمم المتحضرة لذلك العهد نظراً لموقعها الجغرافي وحالتها الاجتماعية ، وكان هذا الاتصال من طرق عدة :-

١- التجارة: كان يحد شبه الجزيرة طريقان أساسان للتجارة علي حافة الصحراء، طريق يمتد من "اليمن إلي جنوب فلسطين، والثاني من الخليج العربي ويدخل وادي الرافدين ثم ينحرف إلي سوريا قاصداً دمشق"(٢١) لذلك كان أظهر القائمين بالتجارة من اليمنيين .

ثم ضعف شأن اليمن واضمحلت قيمتها بصفتها سوقا تجارية بعد انهيار سد مأرب وبعد تحويل الرومان طريق التجارة بين الهند وأوروبا إلي البحر الأحمر، ومن هنا بدأت قريش منذ القرن السادس الميلادي تتسلط علي التجارة يشترون السلع من اليمنيين والحبشيين، ويبيعونها في أسواق مصر والشام. وكانت رحلات قريش التجارية آمنة لاحترام العرب واجلالها لها، لأنهم حماة البيت وأهل الحرم .

وكانت هذه التجارة سبباً من أسباب اتصال العرب بالأمم المجاورة من أصحاب المدنيات القديمة، كالفرس والروم، مما كان له أثره في تثقيف عقولهم وتوسيع مداركهم، حيث نقل التجار العرب مع سلعهم كثيراً من الألفاظ الفارسية والرومية والمصرية والحبشية وأدخلوها في لغتهم وأخضعوها لقوانينهم، كما كانوا يعرفون الكتابة والقراءة والحساب، هذا إلي جانب معرفتهم ببعض النواحي السياسية والاجتماعية والأدبية للأمم المجاورة .

٢- **إنشاء المدن العربية علي التخوم:** ومن ذلك إمارة اللخميين في الحيرة بجوار الفرس، وإمارة الغساسنة في الشام بجوار الروم، وكل من عرب الجنوب الذين هاجروا من اليمن إلي العراق والشام في مطلع القرن الثالث للميلاد "وكان المناذرة يحمون تخوم الامبراطورية الساسانية من غزوات البدو الآتية من نجد وبادية الشام، كما كانوا حاميات وطلائع في وجه الجيوش الرومية، ومثل ذلك كان شأن الغساسنة بالإضافة إلي الروم"[٢٢]

وكان عرب الحيرة هم الصلة بين الفرس وعرب الجزيرة، ينقلون التجارة بينهما، وينشرون مدنية الفرس وثقافتهم، وينقلون أخبارهم وأقاصيصهم، ويشتغلون بتعليم القراءة والكتابة، وبذلك أصبحوا واسطة في نشر المعارف في الجزيرة العربية .

يضاف إلي ذلك ما كان للحيرة من "تأثير كبير في الأدب العربي، والحياة العقلية للعرب عامة، فأحاديث جذيمة الأبرش وأساطير الزباء (وهما من الحيرة قبل إنشاء الإمارة التي ذكرناها) والخورنق والسدير والتغنى بهما وبعظمهما، والأقاصيص حول سنمار باني الخورنق والأمثال التي ضربت فيه، ويوما النعمان: يوم نعيمه ويوم بؤسه، كل هذه وأمثالها شغلت جزءاً كبيراً من الأدب العربي، وكلها تتعلق بعرب الحيرة وحياتهم. " [٢٣]

أما إمارة الغساسنة فقد "بلغت درجة كبيرة من الحضارة، فقد كان ببلادها كثير من الحصون، كما كان بها كثير من البيع والكنائس. وكان ملوكها يقتنون الجواري الروميات، ومبانيها مجللة بالحجر الأبيض المأخوذ من الجبال

القريبة منها. وقد تعلموا من مخالطتهم الروم ومحاربتهم الفرس ، الفنون الحربية وطرق الدفاع ، وكسبوا المران العسكري ، وأخذوا من اللغة اليونانية كثيراً من الكلمات التي لم تكن معروفة بها مثل الكنيسة والراهب. (٢٤)

وكذلك كانت الغساسنة واسطة بين الروم وعرب الجزيرة، يعلنون حضارتهم وينقلون أخبارهم، ووفد عليهم كثير من شعراء الجزيرة "وفي مقدمتهم النابغة الذبياني، الذي قصد الحيرة وغسان معا، وحسان بن ثابت شاعر الغساسنة، الذي أكثر من مدائحهم، وضمنها غير قليل من معالم حضارتهم، وترفهم.(٢٥) حيث اشتهروا بين العرب بالكرم، فقالوا: "أوقر للضيف من بنى غسان "،

٣- **اليهودية والنصرانية:** من عوامل نشر الثقافة الأجنبية فى جزيرة العرب

انتشار اليهودية والنصرانية

اليهودية: انتشرت اليهودية في جزيرة العرب قبل الاسلام بقرون حيث "كان في القرون الأولى للميلاد مستعمرات يهودية: في تيماء، وفدك، وخيبر، ووادي القرى، وفي يثرب وهي أهمها. وكان يهود يثرب ثلاث قبائل: بنى النضير، وبنى قينقاع، وبنى قريظة.

وقد اشتهر اليهود في جزيرة العرب حيث حلوا بمهارتهم في الزراعة ، كما اشتهروا في يثرب أيضاً بصناعاتهم المعدنية كالحدادة والصياغة وصنع الأسلحة ، هذا إلي جانب عملهم في نسج الأقمشة. كذلك عمل اليهود علي نشر ديانتهم جنوبى الجزيرة، حتى تهود كثير من قبائل اليمن، ومن أشهر هؤلاء المتهودين ذو نواس، الذي اشتهر بتحمسه لليهودية، واضطهاده لنصارى نجران. و قد نشر اليهود في البلاد التي نزلوها في جزيرة العرب تعاليم التوراة وما جاء فيها، من تاريخ خلق الدنيا، و من بعث وحساب وميزان، ونشروا تفاسير المفسرين للتوراة وما أحاط بها من أساطير وخرافات كالتي أدخلها – بعد – من أسلم من اليهود مثل كعب الأحبار ووهب بن منبه وأضرابهما. وكذلك كان لليهود أثر كبير في اللغة العربية ، فقد أدخلوا عليها كلمات كثيرة لم يكن يعرفها

العرب، ومصطلحات دينية لم يكن لهم بها علم مثل جهنم والشيطان وإبليس ونحو ذلك.

أضف إلي هذا أن اليهودية حلت بجزيرة العرب بعد أن تأثرت بالثقافة اليونانية تأثراً كبيراً، لأنها ظلت قروناً تحت الحكم اليونانى الروماني، ولأنها كانت منتشرة في الإسكندرية وعلي شواطئ البحر الأبيض حيث الثقافة اليونانية، وكان من أحبار اليهود من تعلم الفلسفة اليونانية وتأدب بأدبها ، فتسربت تلك الثقافة إلي اليهودية، كما تسرب إليها بعض مبادئ من القانون الروماني.

* **النصرانية:** انقسمت النصرانية في ذلك العهد إلي عدة فرق، تسرب منها إلي جزيرة العرب فرقتان كبيرتان: النساطرة، واليعاقبة، فكانت النسطورية منتشرة في الحيرة، واليعاقبة في غسان وسائر قبائل الشام.

وأهم موطن للنصرانية في جزيرة العرب كان (نجران)، وقد نشرت المسيحية تعاليمها بين العرب، حيث كان القسس والرهبان يردون أسواق العرب، يعظون ويبشرون، ويذكرون البعث والحساب، والجنة والنار، وقد ورد في القرآن الكريم كثير من الآيات تحكي أقوالهم وتفند مذاهبهم، مما يدل علي انتشار هذه التعاليم بينهم.

وقد أثرت هذه النصرانية في الشعراء كقس بن ساعدة، وأمية بن أبي الصلت، وعدى بن زيد، وهؤلاء لهم مسحة خاصة في شعرهم عليها طابع الدين ومتأثرة بتعاليمه، تزهد في الدنيا وشئونها. ووجود النصرانية في الجزيرة قد أثر في الشعراء الوثنيين أيضاً، حيث تسربت فكرة البعث والحساب إلي نفر من الجاهليين مما أدى إلي ظهور جماعات المتحنفين.

وكان النساطرة علي الأخص أكثر إلماماً بعلوم اليونان، وقد ترجموا كثيراً من الكتب اللاهوتية والفلسفية عن اليونانية، كما اشتهروا بالطب والعلوم الطبيعية، وكان أول كتب استخدمت لبث الثقافة اليونانية هي الكتب المكتوبة باللغة السريانية والتي خلفتها هذه المدارس النسطورية، وعلي العموم فقد كان هؤلاء النساطرة هم الصلة بين اليونان والعرب.

من خلال هذه الأمور الثلاثة: التجارة، والإمارات علي التخوم، واليهودية والنصرانية، تسربت المدنيات المجاورة إلي العرب، إلا أنها تسربت في نطاق ضيق محدود، في شكل حكم أو قصص أو أمثال أو أحداث تاريخية مما يخف حمله علي الناقل، ومما يستطيع البدوي ومن في حكمه وظروفه أن يهضمه.(٢٦)

٣- الطبيعة الثقافية للعصر الجاهليّ :-

هذه المحددات (العوامل) مجتمعة أفرزت ثقافة معينة لدى الإنسان الجاهلي، حيث أثمرت هذه العوامل في تكوين مجموعة من القيم والمثل والمبادئ التي شكلت ما يمكن تسميته بثقافة العصر الجاهلي والتي يمكن إبراز ملامحها وأنواعها في الآتي :-

١- النظام القبلي (العصبية) :-

فرضت الحياة الصحراوية علي سكانها البدو النظام القبلي ، حيث لم يكن للعرب " نوع من الحكومات المعروفة الآن ولم يكن لهم قضاء يحتكمون إليه أو " بوليس " يقر الأمن والنظام، أو جيش يدرأ عنهم الأخطار الخارجية، كذلك لم يكلفوا دفع الضرائب لعدم وجود حكومة تقبض علي زمام السلطة التنفيذية، وتضرب علي أيدي المعتدي وتوقع عليه العقاب المناسب مع جرمه. وإنما كان الشخص المعتدى عليه يثأر لنفسه بنفسه، وعلي قبيلته أن تشد أزره"(٢٧) وهذا ما عبر عنه قريظ بن أنيف قائلاً : -

قومٌ إذا الشرُّ أبدى ناجِذَيْه لهم ... طـاروا إليه زرافاتٍ ووحدانا

لا يسألون أخاهم حين يندُبهُم ... في النائباتِ علي ما قال بُرْهَانَا

فالقبيلة تنصر كل فرد فيها ظالماً أو مظلوماً، مالم يخرج علي عرفها، فإذا تعدى هذا العرف، أعلن القوم براءتهم منه، حتى لا تؤاخذ قبيلته بما يرتكبه من أخطاء، ويسمى حينئذ خليعاً، مما يضطره للبحث عن قبيلة أخرى تحميه من تلك الحياة القاسية التي تتهده بالأخطار والمحن في كل وقت.

فالقبيلة وحدة سياسية، قائمة بذاتها تنصر المظلوم من أبنائها، وتخلع ما يشذ عنها، وذلك عن طريق زعامة أو رئاسة لها تعرف باسم شيخ القبيلة، وشيخ القبيلة في المجتمع الجاهلي واحد منها، نستطيع أن نستخلص صفات زعامته من وصية لقيط بن يعمر الأيادي لقومه التي تضمنها ديوانه، حيث يقول :

فقلّـــدُوا أمــرَكــمْ لله درُّكُمُ رحبَ الذراعِ بأمرِ الحربِ مُضطَّلعا
لامُترفاً إنْ رخاءُ العيشِ ساعَده ولا إذا عَضَّ مكـــروهٌ بـــه خشعا
مُسَهَّــد النــوم تَعْنِيــهِ أمورُكمُ يَــرُومُ منهــا إلي الأعــداءِ مُطَّلَعا
ماانفكَّ يحلب هذا الدهر أشْطُرَه يكـــون مُتَّبَعَّـــاً طَــوْراً ومتّبِعَا
وليــس يشغلُــه مــالٌ يثمِّــرُه عنكم ولا ولـــدٌ يبغـــي له الرِّفعا

فمن الواضح أن هذا الشيخ كان يعين بالانتخاب ، وأنه يمثل الرأي العام للقبــيلة فــيما يقوم به، وأنه لابد من توافر هذه الصفات فيه: الشجاعة، الدراية بأمور الحرب، الكرم، الحلم وسعة الصدر، كثرة الأنصار، الثروة.

والأفــراد في القبيلة متساوون في الحقوق والواجبات، والعلاقات بينهم تقــوم علـــي مـــا يعـــرف باسم العصبية، "التي تعنى التضامن التام بين الفرد والجماعة في الحقوق والواجبات، فكل فرد مسئول عن قبيلته، وكل قبيلة مسئولة عـــن كل فرد من أفرادها"[٢٨] وإذا كان لكل فرد في القبيلة حق التمتع بحمايتها والاستنجاد بها، فإن عليه واجباً مكلفاً به نحوها ، ويتضح ذلك من قول دريد بن الصمة:

وهل أنا إلاَ من غَزِ يَّةَ إنْ غوَتْ غوَيْتُ ، وإن تَرشُدْ غزَيةُ أرْشُدُ

فهـــو مـــع القبيلة إن ضلت ضل معها، وإن اهتدت اهتدى معها. وليس معنى هذا أن سلطان القبيلة علي أفرادها يلغى ذاتية أي فرد منهم، "وإنما يجعلها فــردية جماعية ... إن القبيلة كما كانت تلزم الفرد أن يندمج فيها، كانت هي – مـــن ناحية أخرى – تلتزم مجتمعة بهذا الفرد، وتهب لنجدته إذا مسه ضيم، وقد

تـدخل الحرب من أجل فرد منها ناله أذى، فنحن هنا أمام ذاتية جماعية تندمج فيها الفردية في الجماعية إلي حد يصعب فيه الفصل بينهما.(٢٩)

* **الشـاعر والقبـيلة:** وقـد كـان لهذه العصبية أثر كبير في الشعر العربي "فالشـاعر لا يـتحدث عن نفسه في شعره إلا بقدر محدود، وفي نطاق ضيق، ليفـرغ لقبيلـته، يتحدث باسمها، ويسجل انتصاراتها ويعبر عن آمالها وآلامها، ويسـجل الخطوط العامة لسياستها، لذلك ظهرت تلك الطائفة من الشعراء الذين أطلـق علـيهم "شعراء القبائل" والذين كانوا يشكلون الغالبية المطلقة من شعراء العصر الجاهلي وقد طبع هؤلاء الشعراء شعر هذا العصر بطابع قبلي ميزه من الشـعر العربي في سائر عصوره ومختلف بيئاته بعد ذلك، اختفت منه النزعة الذاتية لتحل محلها النزعة الجماعية ، وذابت منه الشخصية الفردية لتظهر بدلاً منها الشخصية القبلية " (٣٠)

وكـان اعتزاز القبيلة بشاعرها أكثر من اعتزازها بالفارس الذي يحمي الحمـى بسـيفه ، فكانت تحتفل بنبوغ شاعر فيها ، وتتقبل التهنئة فيه ، وتعده ذخيرة عزة وقوة ومجد لها.

وفـي ذلـك يقول بعض بنى بكر ساخراً من بنى تغلب لكثرة ترددهم معلقة عمرو بن كلثوم :

ألهي بنى تغلبَ عن كلِّ مكرُمَةٍ قصيدةٌ قالها عمروُ بنُ كُلثومِ
يرْوُونَهـا أبداً مُذْ كان أولُهـم ياللرِّجال لشعرٍ غيرِ مشئومِ

كما كان لهذه العصبية أثر واضح في علاقة القبائل بعضها ببعض ، فإذا كانـت روح الـوئام سـائدة بين أفراد القبيلة الواحدة ، فإنها مفقودة تماماً بين القبائل المختلفة، وأيام العرب وغزواتهم التي غذتها واشعلتها هذه العصبية خير مـثال علـي ذلك. لذلك نستطيع القول إن هذه العصبية كانت من الأسباب التي حالـت دون وحدة العرب في نطاق مجتمع عربي كبير متماسك يسوده السلام ، والنظام ، والاستقرار.

٢ – الحروب :-

"لعـل أهم ما يميز حياة العرب في الجاهلية أنها كانت حياة حربية تقوم علي سفك الدماء حتى لكأنه أصبح سنة من سننهم، فهم دائماً قاتلون مقتولون، لا يفـرغون من دم إلا إلي دم ، ولذلك كان أكبر قانون عندهم يخضع له كبيرهم وصغيرهم هو قانون الأخذ بالثأر، فهو شريعتهم المقدسة، وهي شريعة تصطبغ عـندهم بما يشبه الصبغة الدينية، إذ كانوا يحرمون علي أنفسهم الخمر والنساء والطيب حتى يثأروا من غرمائهم"(٣١)

أمـا عـن أسـباب الحروب فكان أكثرها "نزاعاً بين بعض الأفراد في قبيلتين مختلفتين، إما بسبب قتل أو بسبب إهانة، أو بسبب اختلاف علي حد من الحـدود، وحينئذ تشتبك عشيرتا هؤلاء الأفراد، وتنضم إلي كل عشيرة عشائر قبيلـتها، وقـد تنضـم أحلافهما، فتنتشر الحرب بين قبائل كثيرة."(٣٢) فدواعي الخـلاف بيـنهم تـبدأ صغيرة، اختلاف علي سيادة أو تسابق علي موارد الماء والكـلأ، أو حقد وبغضاء بين بعض الأفراد إلا أنها سرعان ما تستفحل وتنتشر وتنتهى بالاحتكام إلي السيف. فتشب الحروب ويصطلى الجميع بنارها، وفي ذلك يقول الحارث بن عباد :

قَـرِّبَا مَرْبِطَ النعامةِ منى لَقِحتْ حربُ وائلٍ عن حَيَال

لم أكن من جُناتها علم الله (م) وإني بحـرِّها اليومَ صـالِ

فالجمـيع يصـطلى بـنارها راغب فيها أو كاره، حتى ولو لم يكن من جناتها.

وكـان العربـي يأنـف أخذ الدية قبل إدراك الثأر، وفي ذلك يقول عبد العزي الطائي:

إذا ما طلبنا تَبِّلَنا عند معشرٍ أبينا حِلابَ الدَّرِّ أو نشربَ الدَّما

فالقتل أوفى عندهم للقتل، والدم لا يشفيهم منه إلا الدم. ويصور مرة بن عـداء الفقعسى، إصرار العربي علي الثأر ورفضه للدية، حيث كانوا يرون في قبولها عاراً ليس بعده عار، فيقول:

فلا تأخذوا عَقْلاً من القوم إننى أرى العارَ يبقى والمعاقلُ تذهب

لـذلك أصـبحت حـياتهم كلها حروباً وإغارات كما يصورها دريد بن الصمة حيث يقول:

يُغار علينـا واترين فيُشْتَفَى بِنا، إن أُصبْنَا أو نُغيرُ علي وِتْرِ

قسمنا بذاك الدهرَ شِطْرَيْنِ بيننا فما ينقضى إلا ونحنُ علي شِطْرِ

فأوقات الدهر بينه وبين أعدائه مقسومة قسمين ، فتراها لا ينقضى شئ منها إلا وهم فيه علي أحد الحدين ، إما أن يكون لهم الكرة عليهم فينالوا منهم ، وإما أن تكون لاعدائهم الجولة عليهم فيظفروا بهم.

وقـد يضـطر العربي لقبول الدية حقنا للدماء وإبقاء علي المودة ، ولا يكـون ذلـك غالباً إلا بعد تفاقم الأمر ، وإلا بعد أن تأتي الحرب علي الحرث والنسل ، وفي ذلك يقول امرؤ القيس :-

الحربُ أولُ ما تكـون فَتِيَّـةً تسعى بـزينتهـا لكـل جهولِ

حتى إذا حميت وشبَّ ضِرامُها عادت عجوزاً غيرَ ذات خليـلِ

شمطاءَ جزّت رأسَها وتنكرت مكـروهـةً للشـمّ والتقبيـلِ

وقد اعتاد المؤرخون تسمية هذه الحروب التي دارت بينهم (أيام العرب) لأنهـم كانوا يتحاربون نهاراً، فإذا جنهم الليل وقفوا القتال حتى يخرج الصباح، وقد ورد في أشعار الجاهليين أنفسهم ذكر الأيام مرادفة لمعنى الحروب ، كقول عمرو بن كلثوم في معلقته :-

أبا هِنْدٍ فَلاَ تَعْجَلْ علينا وانْظِرْنَا نُخَبِّـرْكَ اليَقِينَـا

بأنَّا نُورِدُ الراياتِ بيضاً ونُصْدِرُهُنَّ حُمْراً قد رُوِينَا

وأيامٍ لنا غُرٍّ طـوالٍ عَصَيْنَا المَلْكَ فيها أنْ نَدِينَا

" وتعتبـر أيام العرب في الجاهلية مصدراً خصباً من مصادر التاريخ ، وينـبوعاً صافياً من ينابيع الأدب ، ونوعاً طريفاً من أنواع القصص ... فهي توضح شيئاً من الصلات التي كانت قائمة بين العرب وغيرهم من الأمم كالفرس والـروم ، وتـروى كثيراً مما كان يقع بين العرب القحطانيين والعدنانيين من

خلاف، وبين العدنانيين أنفسهم من أسباب النزاع، بل إنها سبيل لفهم ما وقع بين العـــرب بعد الإسلام من حروب شجرت بين القبائل ، ووقائع كانت بين البطون والأفخاذ والعشائر.

ثم هي في أسلوبها القصصي، وبيانها الفني مرآة صافية لأحوال العرب وعـــاداتهم وأسلوب الحياة الدائرة بينهم، وشأنهم في الحرب والسلم، والاجتماع والفـــرقة، والفداء والأسر والنجعة والاستقرار، وهي أيضاً مرآة صادقة تظهر فيها فضائلهم وشيمهم، كالدفاع عن الحريم، والوفاء بالعهد، والانتصار للعشيرة، وحمايـــة الجـــار، والصبر في القتال، والصدق عند اللقاء، وغير ذلك مما تراه واضحاً في تلك الأيام. "(٣٣)

وتنقسم أيام العرب في الجاهلية قسمين :

١- أيام داخلية ٢- أيام خارجية

أمـــا الأيـــام الداخلية فهي الحروب والمناوشات التي وقعت بين بعض القـــبائل العربية وبعضها الآخر مثل: - حرب البسوس بين بكر وتغلب من بنى ربيعة، وهي من أيام ربيعة فيما بينها.

- حرب الأوس والخزرج ، وهي من أيام القحطانية فيما بينها.
- حرب داحس والغبراء بين عبس وذبيان ، وهي من أيام قيس فيما بينها.
- حروب الفجار ، وهي من أيام قيس وكنانه.

وأما الأيام الخارجية فهي الحروب التي وقعت بين بعض القبائل العربية وبعض الأمم المجاورة ومن والاهم من القبائل والبطون العربية مثل يوم ذي قار ويـــوم الصفقة بين العرب والفرس. وقد كانت هذه الحروب "من أعظم المواطن التـــي تهـــيج فـــيها النفوس بالشعر للتحريض علي القتال، وللنوح علي القتلى، والافتخار بالانتصار، والشعر كما يقولون: يوحيه الحب والحرب والموت.

لـــذلك نجـــد الفتـــرة التي شهدت حرب البسوس قد نبغ خلالها شعراء كثيـــرون مـــن أمـــثال: جليلة بنت مرة البكرية، والمهلهل، والحارث بن عباد،

والمـــرقش الأكبـــر، والمـــرقش الأصغر، والفند الزماني، حتى أصبحت حرب البسوس تمثل مرحلة من مراحل الشعر في العصر الجاهلي.

٣ – الطبقية (ظاهرة الصعلكة) :-

أدي اختلال الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المجتمع الجاهلي إلي ظهور الطبقية أو الصعاليك، والصعاليك هم "جماعات من فقراء القبائل الأشداء ضـــاقت بهـــم سبل العيش في ظلال قبائلهم لاختلال الأوضاع الاقتصادية فيها، فتمـــردوا علـــيها، وكفـــروا بها، ورفضوا تنفيذ العقد الاجتماعي بينهم وبينها، وانطلقـــوا إلـــي الصحراء يشقون طريقهم في الحياة بقوتهم، ينهبون ويسلبون، ويقطعـــون الطـــرق علـــي القـــوافل التجارية التي تسيل بها شعاب الصحراء، ويغيـــرون علي الأغنياء المترفين وخاصة البخلاء منهم ... خارجين بذلك علي قانون "العصبية القبلية " الذي يفرض عليهم العمل من أجل قبائلهم وحدها."[٣٥]

فـــنحن أمـــام طائفة جمعت بعض فقراء العرب وخلعائهم وأغربتهم في عصـــبة مذهبـــية واحـــدة، وخـــرجت بهـــم عن العصبية القبلية، تحقيقاً للعدالة الاجتماعية وتبرماً لهذا التفاوت بين أفراد المجتمع الجاهلي. وقد جمع بينهم الفقر والتشرد والتمرد علي النظام القلبي العنصري. لذلك انتشر هؤلاء الصعاليك في" أرجاء الصحراء كما تنتشر الذئاب الجائعة ينشرون جواً من الفزع بين القبائل، ويبـــثون الـــرعب فـــي نفـــوس متـــرفيها، في محاولة لإيجاد لون من التوازن الاقتصـــادي، وصـــورة مـــن العدالـــة الاجتماعية، في مجتمع اختلت موازينه الاقتصادية، واضطربت مفاهيمه الاجتماعية، غير ميالين في سبيل ذلك بوسائل تحقـــيقها: أكانـــت مشـــروعة أم غيـــر مشـــروعة، فالحق للقوة، والغاية تبرر الوسيلة."[٣٦]

ومـــن الواضـــح أن هؤلاء الصعاليك نتيجة رفضهم للمجتمع، ورفض المجـــتمع لهـــم ولســـلوكهم قد تحولوا إلي "إطار اجتماعي جديد حيث تقاربت مســـتوياتهم الفردية ووسائلهم في جمع المال. وكونوا لأنفسهم وبأنفسهم مجتمعا" فوضوياً ، وإن كانوا قد اتخذوا معياراً يحتم علي الفرد أن يخضع لمنهج جماعته

الجديـــدة في الكسب ، هذا المنهج الذي يرفض القعود وانتظار عطف الأغنياء ، يـــرفض الـــبلادة والكســـل ، ويقبل علي الجسارة وانتزاع المال من بين أيدي الآخرين وانفاقه بسخاء علي الرفاق" [٣٧] لا من أبناء قبائلهم وحدها ، ولكن علي المستضعفين من الفقراء من شتى القبائل.

وقد ترك هذا الخروج علي العصبية القبلية أو الخلع أثراً عميقاً نافذاً في وجدانهم "سجلته أشعارهم المشحونة بأشجان الغربة ووطأة الوحدة النفسية وقسوة الحـــرمان مـــن أنس الأهل والدار. بل إن سلوكهم كان يطوى وراء الاستهانة بالحـــياة والانطـــلاق فـــي الفضاء العريض والمغامرة الفتاكة المثيرة ، سخرية مريرة بالحرية الفردية وشعوراً عميقاً بالتمزق والتشرد والضياع. [٣٨]

وخيـــر مـــثال علـــي ذلـــك شعر الصعاليك نفسه ، الذي يصور بيئاتهم وخصائصـــهم النفسية والجسمية ونزعاتهم الفردية التي أحلوها محل الشخصية القبلية، ومن ذلك قصيدة **(قالوا لها)** لتأبط شراً ، والتي يقول فيها : –

وقالوا لها : لا تَنْكِحِيه فـــإنه ... لأوّلِ نَصـــلٍ أنْ يلاقَي مَجْمَعَا
فلم تر مِنْ رأيٍ فَتيلاً وحاذرتْ ... تَأيُّـــمهَا مِنْ لابـــس الليلِ أرْوَعا
قليلِ غِرَارِ النوم أكبـــرُ همِّـــه ... دمُ الـــثأر أو يلقـــى كَمِيًّا مُقَنَّعا
قليـــلِ ادّخارِ الزاد إلا تَعِلَّـــةً ... فقد نَشَزَ الشُّرْسُوفُ والتصقَ المعَى
يبيتُ بمَغْنَىَ الوحشِ حتى أَلِفْنَه ... ويُصبحُ لا يَحمي لها الدهرَ مَرْتَعَا
رأينَ فتًى لا صيد وحشٍ يُهِمُّه ... فلو صافحتْ إنسا لَصَافحنه مَعَـــا
ولكنَّ أربَاب المَخَاض يَشُقُّهم ... إذا افتَقَـــدَوه أو رَأَوْه مشيَّعـــا
وإني وإن عُمِّرتُ أعلمُ أننـــي ... سألقَى سنانَ الموت يَرْشقُ أضلُعَا

فالقصـــيدة ترسم لنا صورة كاملة لمجتمع الصعاليك وتسجل خصائصهم النفسية والجسمية ، فالشاعر هنا : مغامر ، يعرض حياته للموت في كل لحظة ، المـــرأة لديه ليس المرأة الجميلة المحبوبة التي نعرفها عند سائر الشعراء ، إنما هـــي المرأة الحريصة علي زوجها التي تخشى مرارة الترمل بعده ، وهو قليل النوم مشغول بقضيته التي وهب حياته لها ، كريم جواد ، يؤثر غيره من الفقراء

الجـياع علي نفسه لذلك فهو ضامر نحيل لقلة ما يبقيه لنفسه من طعام ، متشرد في أعماق الصحراء حتى ألفته الوحوش فأنست إليه حتى لو أنها صافحت أحداً من البشر لصافحته. وهو مصدر فزع رهيب لأصحاب النوق العشار المترفين.

وفـي الـنهاية لا يخشى الموت لأنه المصير المحتوم الذي لا مفر منه وبـذلك نكـون أمـام صورة كاملة الخطوط والألوان لهذا المجتمع الجديد وهو مجتمع الصعاليك.

٤ – القيم :-

الصحراء بمجاهلها وأخطارها ، فرضت علي العربي مجموعة من القيم والأخـلاق والخـلال الكـريمة ، تجمعهـا لفظ " المروءة " ومعناها النخوة أو الفضـيلة. " وهي تقوم أولاً وقبل كل شئ علي الشجاعة والكرم. وتبدو شجاعته في عدد من يقتل من عدوه وذوده عن عشيرته ، كما تبدو في إحسانه إلي عدوه. وهو في هذا قريب الشبه بفارس العصور الوسطى. أما كرمه فيظهر في احتفاله بالقتل أكثر من احتفاله بالغنيمة ، وفي استعداده لذبح ناقته قرى للضيف والفقير والمحـتاج ، وبالجملـة فهو يرغب في البذل أكثر مما يرغب في النوال " (٣٩)

وهذا ما عبر عنه عنترة في قوله :

يُخبِّرْكِ من شَهِدَ الوقِيعةَ أنني أغْشَى الوغَى وأعَفُّ عند المَغْنم

وعـي العربـي هـذه الخلال ، واتخذ منها مثلاً عليا ، حرص عليها ، وتغنى بها في أشعاره ، وقد كان من أبرزها :-

• الشـجاعة: كان للشجاعة عند العرب منزلة سامية، بحكم المخاوف والمخاطر التي تحيط بهم، وبحكم الحروب الدائرة التي لا تنتهي، فهم مضطرون دائمـاً للـدفاع عـن أنفسهم وعن أهلهم. و كثيرا ما تغنى الشعراء بشجاعتهم وإقدامهم ونكايتهم بأعدائهم وفي ذلك يقول عنترة :

وليس سِـبَاعُ البَرِّ مِثْلَ ضِـبَاعِـه ولا كلُّ مَنْ خاض العَجَاجةَ عنترُ

سلوا صَرْفَ هذا الدهرِ كم شنَّ غارةً فـفرَّجتُها والمـوتُ فيها مُشَمِّـرُ

بصـرمِ عزمٍ لو ضربتُ بحـدِّه دُجَي الليلِ ولَّي وهو بالنَّجم يَعْثُر

دعوني أجدَّ السعى في طلب العلا فأدرِك سؤلي أو أموت فأُعْـذرُ
قفي وانظري يا عبل فعلّي وعايني طِعاني إذا ثار العَجَاجُ المـكدَّرُ
ترى بطلا يلقى الفوارس ضاحكاً ويرجعُ عنهم وهْو أشعثُ أغبَرُ
ولا ينثنى حتى يُخلّى جمـاجماً تمرُّ بها ريحُ الجنوبِ فتصفِرُ
وأجسادَ قومٍ يسكنُ الطيرُ حولها إلي أن يَرَى وَحْشَ الفلاةِ فينفِرُ

* **الكـرم:** فرضـت الصحراء بما فيها من جدب وإمحال علي العربي خصلة الكرم، فحرصوا عليها وأشادوا بها، ومن ذلك حاتم الطائي الذي ضربت به الأمثال في الكرم، والذي وصفته ابنته بين يدي الرسول صلي الله عليه وسلم بأنـه "كان يفك العاني، ويحمى الذمار، ويقرى الضيف، ويشبع الجائع، ويفرج عن المكروب ويطعم الطعام، ويفشى السلام، ولم يرد طالب حاجة قط ". وقد رد النبـي صـلى الله عليه وسلم بأن هذه صفه المؤمن، وقال: إن أباها كان يحب مكارم الأخلاق.

ومن مفاخر العرب في الكرم، الكرم في الشتاء ، حيث يقول طرفه :-

نحن في المَشْتَاةِ ندعو الجَفَلَىَ لا تري الآدِبَ فينا يَنْتَقِرْ

ويقول الحادرة وهو قطبة بن أوس بن محصن :-

إذ لا يُنَسِّنا الشتاءُ ولا نَطَأُ الضعيف إرادةَ الأكل

فالشـتاء لا يدنسـهم ولا يشينهم ، لأنهم لا يبخلون فيه علي المحتاج ، والكـرم في الشتاء كما هو واضح له معناه ودلالته وقيمته عند البدوي ، وذلك لأن الحياة في البادية في الشتاء أقصى منها في الصيف ، علي الرغم من قسوة الحـياة فـي الصـيف ، لذلك تردد كثيراً افتخار العربي بالكرم في هذا الفصل الشديد ، وفي ذلك تقول الخنساء في رثاء أخيها صخر :

وإن صخراً لوالينا وسيِّدنا وإنَ صَخْراً إذا نشتو لَنَحَّارُ

كما كانوا يوقدون النار ليلاً علي الكثبان والجبال، ليهتدي إليها الضالون فـي الصـحراء، فإذا وفدوا عليهم أمنوهم حتى ولو كانوا من عدوهم وفي ذلك يقول السموءل بن عاد ياء :

إذا سيِّدٌ منَّا خَلاَ قامَ سيِّدٌ قَؤولٌ لما قال الكرامُ فَعُولُ
وما أُخمِدَتْ نارٌ لنا دونَ طارقٍ ولا ذَمَّنا في النَّازِلينَ نَزيلُ

وكثيراً ما حكى الشعراء النزاع بينهم وبين زوجاتهم ، بسبب الإسراف ، فهن يتطلبن الاقتصاد في الإنفاق حرصاً علي دوام الرخاء، بينما يصر الرجال علي السرف لأنه وسيلة الشرف ، ويصور ذلك ما دار بين عروة بن الورد وزوجته من حوار حول البخل والكرم وفيه يقول :

وقد علمتْ سُليمَى أنَّ رأيي ورأىَ البخلِ مختلفٌ شَتيتُ
وأنى لا يُرِينى البخلَ رأىٌ سواءٌ إنْ عطِشتُ وإنْ رَوِيتُ

فهو ينكر عليها اعتراضها علي كرمه، ويوضح لها أن بينه وبين البخل علاقة مفقودة، فهو كريم علي الحالين: كريم في غناه وكريم في فقره.

وليس معنى ذلك أن العرب كانوا جميعاً كرماء، فقد كان البخل آفة من آفات حياتهم الاقتصادية والاجتماعية ، إلا أنه لم يكن خلقا شائعاً فيهم شيوع الكرم ، كما كان مذموماً من أكثرهم.

• الوفاء:- ومن ذلك قصة السموءل بن عادياء الذي يضرب بها المثل في الوفاء عند العرب، فيقال (أوفى من السموءل). ويرجع سببها إلي أن امرأ القيس كان قد استودعه سلاحه "فسار إليه الحارث بن أبي شمر (الغساني) فطلبه، فأغلق الحصن دونه. فأخذ ابنا له خارجا من القصر، وقال: إما أن تؤدى إلي السلاح، وإما أن اقتله. قال: اقتله، فلن أؤديها. ووفي. فضرب به الأعشى المثل ، فقال :

كن كالسَّمَوْأَلِ إذْ طاف الهُمامُ به في جحفلٍ كسوادِ الليلِ جَرارِ
بالأبلقِ الفردِ من تيماءَ منزلُه حصنٌ حصينٌ وجارٌ غيرُ غَدارِ
(إذ سامه خُطَّتَىْ خَسْفٍ فقال له قل ما تشاءُ فإني سامعٌ حارِ)
فقال: ثُكْلٌ وغدْرٌ أنت بينهما فاختَرْ ، وما فيهمَا حَظٌّ لمُختارِ
فشكَّ غيرَ طويلٍ، ثم قال له: اقتلْ أسيرَك إنِّي مانعٌ جَاري"[٤١]

* **رفض الذل واستنكار الهوان:-** فحياة العربي في ظل النظام القبلي الذي يسوده المساواة والديمقراطية جعلته حراً أبياً، يرفض الذل ويستنكر الهوان، وكان أقل شعور به يثيرهم، ومن ذلك قصيدة عمرو بن كلثوم التى تعد "إحدى مفاخر العرب قام بها خطيباً في فتكه بعمرو بن هند وقتله" .(٤٢)

وكان سبب ذلك "ما كان من شأن ليلي أم عمرو بن كلثوم حين نادت بأعلى صوتها أذلاه لتغلب إثر مطلب طلبته منها هند أم عمرو بن هند – ملك الحيرة – بأن تناولها شيئاً ما علي المائدة ، فكانت الواقعة بمثابة تعبير أو إهانة مثلث دافعاً حاراً، انطلق منه عمرو لينتقم من خلاله لكرامة المرأة العربية ممثلة في شخص أمه. " (٤٣) وفي ذلك يقول :

ألا لا يجْهَلَنْ أحدٌ علينا فنجهلَ فوقَ جهلِ الجاهلينَا
بأيِّ مشيئةِ عمروَ بن هندٍ نكون لقيلكم فيها قطينا
بأيِّ مشيئةِ عمروَ بن هند تُطيعُ بنا الوشَاةَ وتزدَرينا
تَهَدَّدْنَا وأَوْعِدْنَا رُوَيْداً متى كنا لأمِّكَ مقْتَوِينَا
فإنَّ قناتَنا يا عمروُ أعْيتْ علي الأعداءِ قبلك أن تَلِينا

* **الصبر علي الشدائد:** ومن صفاتهم السامية النبيلة الصبر علي الشدائد، فها هو ذا الحادرة يشيد بصبر آبائه علي الشدائد والمكروه فيقول :

ووجدتُ آبائي لهمْ خُلُقٌ عَفُّ الشمائل غيرُ ذي دَخْلِ
لو تَصْدُقين لقُلْتِ إنهمُ صُبُرٌ علي النَّجَدات والأَزْلِ
وعلي الرزيَّة من نفوسهمُ وتَلاتِلِ اللَّزْبات والقَتْلِ

كما كانوا يصبرون علي الجوع صبرهم علي الشدائد، وفي ذلك يقول الشنفرى في لاميته :

أُديم مِطالَ الجُوع حتى أُميتَهُ وأضربُ عنه الذِّكْرَ صَفْحاً فَأَذْهَلُ
وأستفُّ تُربَ الأرضِ كي لا يُرىَّ له علي من الطَّولِ امرؤٌ مُتَطَّولُ
ولولا اجتنابُ الذَّامِ لم يبق مَشْرَبٌ يُعاشُ به إلاَّ لدىَّ ومأكَلُ

فهو يصبر علي الجوع إلي الحد الذي يقبل معه أن يستف ترب الأرض، من أن يعرض نفسه لمذلة السؤال ، لما فيها من ذل وهوان.

وليس هناك خلة تؤكد معنى العزة والكرامة إلا تمدحوا بها ، فهم يتمدحون بالبعد عن الفواحش ، والتزام العفة ، وتجنب العيب ، والمحافظة علي العرض وعلي الشرف ، كما تمدحوا ، بالأنفة وإباء الضيم ، والصبر علي الشدائد ، وبالكرم في وقت الشدة ، وحماية الضعيف وإغاثة الملهوف ، والعفو عند المقدرة ، والشجاعة الفائقة في وقت القتال . " وكان سادتهم يمثلون هذه الخصال جميعاً في أقوى صورها ، مضيفين إليها حنكة وحكمة بالغة ، وقد اشتهر من بينهم حكام تجاوزت ألمعيتهم حدود قبائلهم مثل عامر بن الظرب وأكثم بن صيفي ، وكانت تفزع إليهم القبائل في خلافاتها الكبيرة التي يصعب حلها في دائرة قبائلهم وشيوخهم. " (٤٤)

كما نفر العرب من الخبائث مثل : الغيبة والغدر والسعاية ، فكانوا يرون المغتاب هو شر الناس ، وفي ذلك يقول المثقب العبدي :

إن شرَّ الناسِ مَنْ يمدَحُني حين يلقاني ، وإن غِبْتُ شتمْ

والغدر عندهم عار كبير ليس بعده عار، حيث يقول الحادرة لمحبوبته سمية:

أسُمَيّ– ويحك – هل سمعتِ بِغدْرةٍ رُفع اللواءُ لنا بها في مَجْمَعِ

فهو يفتخر بصفاته السامية النبيلة ، ومنها أنه لم يغدر أبداً ، ولم يرفع له لواء بذلك في مجمع.

أما السعاية أو النميمة أو الوشاية فقد حذر منها العرب يقول الأعشى :–

ومن يُطعِ الواشينَ لا يتركُوا له صديقاً وإن كان الحبيبَ المقرّبَا

أما عبدة بن الطبيب فقد ذم النمامين وحذر منهم إذ يقول :

إنّ الذي يُسْدى النميمةَ بينكم مُتنصِّحاً ذاك السِّمامُ المُنْقَعُ

يُزْجِي عَقَارِبَهُ ليبعث بينكم داءً كما بعث العُرُوق الأخدعُ

وممـــا يروى في هذا الموضع أنه " كان بين حاتم طيئ وبين أوس بن حارثـــة ألطـــفُ مـــا يكون بين اثنين ، فقال النعمانُ بن المنذر لجلسائه : والله لأُفسِدَنّ ما بينهما ، قالوا : لاَ تَقدِرُ علي ذلك ، قال : بلى فقلّما جرتِ الرجالُ في شـــئ ، إلا بلغتْه ، فدخل عليه أوسٌ ، فقال يا أوسُ ما الذي يقولُ حاتمٌ ؟ قال : وما يقولُ ؟ قال: يقول إنه أفضلُ منك وأشرفُ، قال: أبيتَ اللعنَ، صَدَقَ! والله لو كنت أنا وأهلي وولدي لحاتم لأنهَبَنا في مجلسٍ واحدٍ ، ثم خرج وهو يقول:

يقولُ ليَ النعمانُ لا مِن نصيحةٍ ... أرى حـــــاتما في قوله مُتَطَاوِلاً

له فوقَنَـــا باعٌ كما قال حاتـــمٌ ... وما النّصْحَ فيما بيننا كانَ حَاولاَ

ثم دخل عليه حاتم فقال مثل مقالته لأوسٍ، قال: صدق، أين عسى أن أقَعَ من أوس! له عشرةُ ذكورٍ أخَسُّهم أفضل منّي، ثم خرج وهو يقول :

يُسائِلُنِي النعمانُ كي يَستَزِلَّنِـــي ... وهيهاتَ لي أن أُستَضَامَ فأُصْرَعَا

كفَانِيَ نقصاً أن أُضيمَ عشيرتي ... بقولٍ أرى في غيره مُتَوَسَّـــــعاً

فقال النعمان: ما سمعتُ، بأكرمَ من هذين الرجلين (٤٥).

هـــذه هي أبرز القيم التي تحلى بها العربي، وحرص عليها، وتغنىَ بها في أشعاره، واتخذ منها مثلاً عليا حاول دائماً السعي وراء تحقيقها .

٥ – العادات :-

علي أن هناك آفاتٍ كانت تشيع في المجتمع الجاهلي لعل من أهمها :-

* **الخمر:-** حيث إن هناك من الأشعار والروايات ما يدل علي أن عادة شرب الخمر وما يتبعها من استباحة النساء كانت شائعة في المجتمع الجاهلي . وكان يشيع معها القمار أو الميسر. وفي ذلك يقول الأعشى :

وكأسٍ شَرِبتُ علي لـــذّةٍ ... وأخرىَ تداويتُ منها بها

لكي يعلمَ الناسُ أني امرؤٌ ... أتيتُ المَسَرَّةَ من بابِـــها

ويقول طرفه :

ولولا ثلاثٌ هنَّ من عيشةِ الفتى ... وجَدّكَ لم أَحفِلْ متى قامَ عُوَّدِي

فمنهنَّ سَبْـقُ العاذلاتِ بشَرْبَـةٍ كُمَيْتٍ متى ما تُعْلَ بالماء تُزْبِدِ
وكَـرِّي إذا نادَي المضافُ مُحنَّباً كَسِيدِ الغَضا نَبهْتَـه المُتَـوَرِدِ
وتقصيرُ يومَ الدَّجْنِ والدَّجْنُ مُعْجِبٌ ببهْكَنَةٍ تحت الخبـاءِ المُعَمَّـدِ

فهـذه هـي المـتع الـثلاث التي يحرص عليها طرفة وهي : الخمر والفروسية والمرأة.

أمـا عن الروايات فقد ورد في أخبار الأعشى أنه " قصد الرسول صلى الله علـيه وسـلم حـين ظهر بمكة بمدحته الدالية ، ولم يكن – علي ما يظن – صادق النية فيما قاله ، بدليل أن أشراف قريش اجتمعوا له فصرفوه عن وجهه ، قالـوا إنه نزل بدار عتبة بن ربيعة ، فأتاه أبو جهل (وقيل أبو سفيان) فقال يا أبـا بصير ! إنـه ينهاك عن خلال ما لك عنهن من غنى ، فقال وما هن ؟ فذكر له القمـار والربا والزنا والخمر ، فتلوم قليلاً ، ثم كر راجعاً بعد أن أخذ ما جمعته له قريش من المال. " (٤٦)

وممـا يـؤكد لـنا أن عادة شرب الخمر ولعب الميسر كانت فاشية في المجـتمع الجاهلي قول الله تعالى في كتابه الكريم: (إنما يريد الشيطان أن يوقع بيـنكم العداوةَ والبغضاءَ في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهونَ) . (المائدة :٩١)

وهـذا يشهد شهادة قاطعة علي انتشار تلك الآفات وتأصلها في المجتمع الجاهلي.

* الحلـبة والرهان : حيث يقول قيس بن زهير العبسى ، علي أثـر ما كـان بيـنه وبيـن حمل بن بدر من رهان :

وما لاَقَيْتُ من حَمَلِ بن بدرٍ وأخوَتِهِ علي ذاتِ الإصَادِ
هُمُ فخروا عليَّ بغيرِ فَخْـرٍ وردُّوا دونَ غايته جَوَادِي

* وأد البـنات : مخافـة المذلة أو العار "علي أن هذا الأمر لم يكن شائعاً عند العرب ، بل كان في بعض الطبقات المنحطة منهم خشية الفقر ، وعلي الأخص في بنى أسد وتميم " (٤٧).

* **تعدد الزوجات:** كان هناك مجموعة من العوامل أدت إلي ظهور هذه الظاهرة في المجتمع الجاهلي منها : الحروب الطاحنة الطويلة التي عاشها العرب ، والتي كانت تقصر أعمار الرجال وتقلل عددهم، هذا بالإضافة إلي خوف العربي علي المرأة باعتبارها هي العرض والشرف، إلي جانب الأوضاع الاقتصادية القاسية التي كانت تحيط بهم ، كل ذلك أدى إلي ظهور هذه الظاهرة الاجتماعية وهي تعدد الزوجات " حيث أصبحت هي الحل المحتوم الذي قبله البدوي لأسباب إنسانية منها إعالة هؤلاء النساء ورعايتهن ، ولأسباب سياسية وهي مصاهرة أكبر عدد ممكن من القبائل فتكون له عوناً وقوة ، ولأسباب اجتماعية وهي رغبة القبيلة في زيادة عدد أفرادها.

* **الزواج بامرأة الأب:** وفي ذلك يقول عمرو بن معد يكرب في امرأة أبيه حين كرهته :

فلولا أخوتي وبَنِيَّ منها ملأت لها ندى شُطَبٍ يمينِي

وينبغى هنا أن نشير إلا أنه علي الرغم من انتشار هذه العادات مثل وأد البنات وتعدد الزوجات والزواج بامرأة الأب ، والجمع بين الأختين .. وغيره من تلك العادات ، إلا أن المرأة في الجاهلية لم تكن مهملة " بل كان لها قدرها عندهم ، كما كان لها كثير من الحرية ، فكانت تمتلك المال وتتصرف فيه كما تشاء ، وقصة اتجار الرسول صلى الله عليه وسلم في أموال السيدة خديجة أم المؤمنين مشهورة. وقد دعم الإسلام هذه الحرية ، فحرم أن تعضل المرأة وتمنع من الزواج بعد وفاة زوجها كما حرم زواج المقت ، وهو أن يجمع الرجل بين أختين، وحرم الشغار ، وهو أن يتزوج شخص أخت صديق له علي أن يزوجه أخته، وأيضاً فإنه حرم أن يتزوج الابن امرأة أبيه بعد موته أو أن يتزوج عدة رجال امرأة واحدة، إلي غير ذلك مما كانوا يبيحونه. وتلك كانت عادات عندهم، وهي تلازم الأمم في عصور بداوتها ".[٤٨]

٦ – الدين :

عرفت الجزيرة العربية الأديان السماوية المختلفة، وانتشرت فيها تعاليم من مصادر مختلفة، "علي أن ما رأيناه من شأن هذه الأديان أنها كانت أولاً باهتة الصورة في أذهان الجاهليين، غير واضحة المعالم، قليلة التأثير في نفوسهم، كما أن تعاليمها لم تكن من الوضوح في الرؤيا والتصور كما يجب أن تكون وكما تنعكس حقيقتها في أعمال اتباعها الحقيقيين. ثم إن هذه الأديان قد خالطها كثير من المعتقدات التي حادت بها عن جادة الصواب، وغيرت مسيرتها ، كما غيرت أصولها ومعالمها ... فصار دين الجاهلي صورة لأهوائه ورغباته أكثر من صورة للدين في حقيقته وواقعه ." (٤٩)

وشابت العقيدة شوائب عدة، فبدلوا التوحيد الذي هو دين إبراهيم بالألهة، وأصبحت الوثنية واقعاً يضاهى التوحيد. فاتخذ العربي الوثن والصنم وسيلة تقربه إلي الله ، الذي يكاد ينسى وسط هذه الأصنام والأوثان .

٧ – العلوم والمعارف :

كان لسكان الشمال المناذرة والغساسنة ولسكان اليمن من التبابعة حضارات يدل عليها ما أقاموه من السدود، وما عمروه من المدن، كما كان لهم علم بالطب والحساب والزراعة. أما سكان الجزيرة من العدنانيين ، فلم يكن "عندهم علم منظم بأصول وقواعد فإن ما كان عندهم من هذا القبيل لا يتعدى معلومات أولية ، وملاحظات بسيطة لايصح أن تسمى علماً ولا شبه علم. أما القواعد والبحث المنظم الذي يسمى علماً، فلا عهد للعرب الجاهليين به. (٥٠)

فهم لا يحذقون كثيراً من العلوم، وإنما أكسبتهم قوة الملاحظة ، وكثرة التجارب والمشاهدات، واضطرار الحاجة بعض المعارف مثل: الطب وهو " لم يكن يتجاوز عندهم الكي بالنار، وبتر الأعضاء بالشفار المحماة والتداوي بشراب العسل، وعصارات بعض العقارات النباتية، وكثيراً ما كانوا يتداوون بالعزائم والرقي، واشتهر بذلك العرافون والكهان،...ومن المشهورين في هذه الصناعة

ابـــن حـــذيم، وهو رجل من تيم كان يقال فيه أطب من ابن حذيم، ومن أحدث أطبائهم الحارث بن كلدة الثقفي المتوفي سنة ثلاث عشرة من الهجرة، وهو من الطائـــف، قيل إنه رحل إلي بلاد فارس، وهناك تعلم الطب ثم رجع، وكانت له شـــهرة واسعـــــة، وكـــــان النبي صلى الله عليه وسلم يأمر من تناله علة من أصحابه أن يأتيه ويستوصفه." (٥١)

ولاحظ العرب النجوم، واهتموا بها ليهتدوا بها في ظلمات البر والبحر، " ولم يعرف العرب النجوم الظاهرة الواضحة فقط ، بل عرفوا كثيراً من النجوم الخفية حتى جاء في

أمثالهم : أريها السها فتريني القمر ! ... والمثل يضرب لمن تحاول أنت ان تدله علـــي دقائـــق الأمـــور فـــلا يستطيع هو أن يدرك إلا الأشياء العامة الواضحة (كالقمـــر) لكل إنسان. ومعظم المدارك الفلكية وأسماء الكواكب والنجوم عرفها الجاهليون وسموا بها أولادهم ، سموا : بدراً وقميراً وهلالاً والزبرقان ، وسموا عطارد وزهرة وسهيلاً والثريا وسماكا وغيرها ." (٥٢)

وقد لاحظوا أيضاً الأنواء لعلاقتها بالكلأ والغيث ، وبرعوا في الأنساب والأخبار والأشعار ، محافظة علي عصبيتهم .

أمـــا بصـــرهم بالخيل " فقد فاقوا فيه سواهم من الأمم ، وقد اشتهر من بياطرهم غير واحد ، منهم العاصي بن وائل " (٥٣)

ومهـــر العـــرب فى الفراسة والقيافة ، والفراسة هى : الاستدلال بهيئة الشخص وكلامه وظاهر أعضائه علي أخلاقه وصفاته . أمـــا القيافة فقسمان : قـــيافة الأثر وتتعلق بمعرفة اتجاه السائرين والهاربين من تتبع آثارهم ، وقيافة البشر ، وهي الاستدلال بهيئة الانسان وشكل أعضائه علي نسبه.

" ويلحـــق بـــذلك الزجر ، أي العيافة وهو التنبؤ بالمستقبل من ملاحظة حـــركات الحيوان والطيور خاصة ، أو بذبح الحيوانات ودراسة العلامات التي تلفي في أكبادها ورئاتها وأمعائها وسوى ذلك . " (٥٤)

وقد عرف العرب الكهانة والعرافة وقد يخصون الكاهن بعلم المستقبل ، والعراف بعلم الماضي . وقد اعتقد العرب فيهم فكانوا يلجأون إليهم يستشيرونهم في المعضلات ويستقضونهم في الخصومات ، ويستشفونهم في الأمراض إذ كان الكاهن طبيباً ، كما كان العراف أشهر في الطب من الكاهن عندهم . ومن أشهر كهانهم شق وسطيح ، ومن العرافين الأبلق الأسدي عراف نجد ، ورباح بن عجلة عراف اليمامة .

أما عن اللغة والأدب، فقد كانت لغتهم من أفصح اللغات . وأبلغها اسلوباً، وأوسعها مادة، فقد عالجوا ألفاظ لغتهم "معالجة الاستثمار فأكثروا فيها من المترادفات التي يدل عشرات أو مئات منها علي معنى واحد أو معان متشابهة. وتوسعوا في مدلول اللفظ الواحد حتى تعددت معانيه .. عندهم للفظ العين بضعة وعشرون معنى، ومثلها أو أكثر منها للفظ العجوز. وعشرات من المعاني لألفاظ الخال والخمر والدين والركن والغرب والحر وغيرها. وأقل من ذلك لكثير من الألفاظ مما لا مثيل له في أرقى لغات البشر. وهو يدل علي تصرف أصحاب هذه اللغة بالمعاني والمباني لخصب عقولهم وسعة مداركهم."(٥٥)

لذلك اشتهر العرب بالشعر وبرعوا فيه ، فكان معظمهم يقرضونه ، وكلهم يروونه ، لما له من تأثير كبير في نفوسهم ، ومنزلة عالية في حياتهم ، فهو سجل وقائعهم وأخبارهم ومعارفهم وحكمهم ومادة حوارهم وسمرهم ، حتى قيل الشعر ديوان العرب . والشعر عند العرب نوعان " مألوف ومخلوف ، أما الشعر المألوف فهو الذي في المعلقات : قصائد طوال ذات أغراض متعددة ومبادئ معروفة ..والمخلوف ما خالف ذلك فكانت القصائد فيه طوالاً أو قصاراً، وقلما جاوز الشاعر فيها الغرض المقصود من قولها. " (٥٦)

وكان أكثر الجاهلين أميين لا يخطون ولا يقرأون الخط ، إلا أن هناك كثيراً من الأدلة التي تؤكد علم عرب الجاهلية بالقراءة والكتابة في القرى والبادية منها :

أ – تلك الإشارات التي وردت في الشعر الجاهلي ، كقول المرقش الأكبر:

الدَّارُ قَفْرٌ والرسومُ كما رقَّشَ في ظهر الأديمِ قَلَم (٥٧)

حيث يشبه المرقش الأطلال ورسوم الديار بالكتابة ونقوشها ، مما يدل علي معرفة الشعراء بالكتابة وأدواتها التي كانت تستخدم وقتئذ من أديم وصحف وأقلام .

كما نجد ابياتاً أخري وردت فيها الإشارة الي الكتب ، مثل قول زهير بن أبي سلمي :

يُؤخَّر فيوضَع في كتابٍ فَيُدَّخَرْ ليوم الحساب أو يُعجّل فيُنْقَمِ

ب – ومما يدل علي معرفة الجاهليين بالقراءة والكتابة أيضاً ، تلك الصحيفة التي كتبها عمروبن هند إلي عاملة بالبحرين يأمره فيها بقتل طرفة والمتلمس .

و قد نجا المتلمس وهرب إلي الشام بعد أن أشار علي طرفة بالرجوع فأبي ، وقال في ذلك :

مَنْ مُبلغُ الشعراءِ عن أخويْهِمُ نبأً فتصدقُهم بذاك الأنْفُسُ

أوْدَي الذي عَلَقَ الصحيفةَ منْهُمَا ونَجَا حِذارَ حِبَائه المُتَلَمِّسُ

أَلْقِ الصحيفةَ، لا أبالكَ، إنّه يُخْشَي عليك من الحِبَاءِ النَّقْرسُ(٥٨)

جـ – ومن الأدلة كذلك أن الرسول – صلي الله عليه وسلم – كان حريصاً علي أن يكون افتداء أسرى بدر لأنفسهم لقاء تعليم عشرة من صبيان المسلمين القراءة والكتابة .

د – ومن الأدلة أيضاً أن سياسة الرسول – صلي الله عليه وسلم – في الدعوة إلي الإسلام ، كانت تقتضي منه كتابة الكتب ، وإبرام المواثيق للأفراد والملوك والقبائل المختلفة ، يدعوهم فيها إلي الإسلام ، ومن هذة الكتب كتابة إلي المقوقس عظيم القبط بمصر الذي يقول فيه :

" بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلي المقوقس عظيم القبط سلام علي من اتبع الهدي .

أمـــا بعـــد ، فإنـــي أدعوك بدعاية الإسلام ، فاسلم ، تسلم ، يؤتك الله أجرك مرتين (يا أهل الكتابِ، تعالَوْا إلي كلمة سواءٍ بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله، ولا نُشـــركَ به شيئا ولا يتخذَ بعضُنا بعضاً أرباباً من دون الله، فإن تولَّوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون (٥٩) .

وبهذه الوسيلة (الكتابة) تم تدوين العهود والأحلاف والمواثيق والرسائل المقتضـــبة، ممـــا اقتضـــته الضرورات الاجتماعية والاقتصادية عندهم، كما تم تدوين القليل من الشعر، أما غالبية الشعر وأكثره فقد كانت الرواية وسيلةً لحفظه وتدوينه ...

الهـــوامش

١- مجلة دراسات – تصدر عن اتحاد كتاب وأدباء دولة الإمارات – العدد الثاني – السنة الأولى ١٩٩٠ صـــ ٧ .

٢- قاموس مصطلحات الأنتولوجيا والفولكلور تأليف إيكه هولتكرانس ترجمة د. محمد الجوهري والدكتور حسن الشامي. دار المعارف بمصر ١٩٧٢ صـــ ١٤٤ .

٣- المرجع السابق صـــ ١٤٦ .

٤- قاموس علم الاجتماع . د. محمد عاطف غيث – الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٩ صـــ ١١٠ – ١١١

٥- تاريخ الجاهلية . د. عمر فروخ منشورات دار العلم للملايين بيروت ١٩٦٤ . صـــ ٥٣

٦- دائرة المعارف الإسلامية . نقلها إلي العربية : أحمد الشنتناوى ، إبراهيم زكي خور شيد ، عبد الحميد يونس ، حافظ جلال. المجلد السادس صـــ ٢٦٥

٧- الأدب العربي وتاريخه في العصر الجاهلي . محمد هاشم عطية باقي البيانات غير واردة . صـــ ٦

٨- حياة محمد. محمد حسين هيكل – الطبعة الحادية والعشرون – دار المعارف صـــ ٧٢ – ٧٣

٩- المرجع السابق . صـــ ٧٣

١٠- تاريخ العرب. المجلد الأول فيليب خورى حتى. الطبعة الثالثة . ١٩٥٢، مطبعة دار العالم العربي بالقاهرة . صـــ ٢٩

١١- المرجع السابق . صـــ ٢٩

١٢- أمراء الشعر في العصر الجاهلي. بيئاتهم – حياتهم – فنهم الجزء الأول. د. صلاح الدين الهادي . مكتبة الشباب صـــ ١٢

١٣- تاريخ العرب . فيليب خوري حتى . صـــ ٣٤

١٤- تاريخ الأدب العربي عمر فروخ الجزء الأول ، دار العلم للملايين . بيروت ١٩٧٨ صـ ٦٥
١٥- الروائع من الأدب العربي. الجزء الأول . الطبعة الثانية المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠١ صـ ١٧
١٦- تاريخ الأدب العربي عمر فروخ صـ ٦٦
١٧- تاريخ آداب اللغة العربية . جرجي زيدان المجلد الأول – دار مكتبة الحياة بيروت ١٩٩٢ صـ ٤٣
١٨- العصر الجاهلي. شوقى ضيف صـ ٧٨
١٩- تاريخ الجاهلية. عمر فروخ صـ ١٥٨
٢٠- تاريخ الأدب العربي. أحمد حسن الزيات الطبعة الخامسة والعشرون . دار نهضة مصر للطبع والنشر صـ ١١
٢١- الحضارات السامية القديمة ستلينو موسكاتي لندن ١٩٥٧ – دار الكتاب العربي للطباعة والنشر صـ ٢٠١
٢٢- تاريخ الجاهلية عمر فروخ صـ ٦٨
٢٣- فجر الإسلام أحمد أمين صـ ٣٢
٢٤- تاريخ الإسلام حسن إبراهيم حسن صـ ٤٤
٢٥- أمراء الشعر في العصر الجاهلي . د. صلاح الدين الهادي صـ ٥٢
٢٦- نحيل هنا إلي كتاب: – العصر الجاهلي د. شوقي ضيف – الطبعة الحادية والعشرون – دار المعارف صـ ٩٧ : ١٠٣ – فجر الإسلام . د .أحمد أمين صـ ٤٠ – ٤٩ – تاريخ الإسلام. حسن إبراهيم حسن صـ ٧٢ – ٧٤
٢٧- تاريخ الإسلام .حسن إبراهيم حسن صـ ٥٢
٢٨- الروائع من الأدب العربي صـ ٢١
٢٩- قيم جديدة للأدب العربي القديم والمعاصر – د. عائشة عبد الرحمن – دار المعارف بمصر صـ ٣٥

٣٠- الروائع من الأدب العربي . بتصرف صـ ٢٢-٢٣
٣١- العصر الجاهلي شوقى ضيف صـ ٦٢
٣٢- المرجع السابق . صـ ٦٣
٣٣- انظر: - أيام العرب في الجاهلية. محمد أحمد جاد المولي بك، علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم - منشورات المكتبة العصرية بيروت المقدمة صـ (ط) - أيام العرب وأثرها في الشعر الجاهلي. منذر الجبورى منشورات وزارة الإعلام العراق ١٩٧٤ سلسلة الكتب الحديثة (٦٧) صـ ٧٣-٩٢
٣٤- الأدب العربي وتاريخه في العصر الجاهلي . محمد هاشم عطية صـ ٥٧
٣٥- الروائع من الأدب العربي صـ ٣١
٣٦- المرجع السابق صـ ٣٢-٣٣
٣٧- الأدب الجاهلي . د. عبد العزيز نبوي . الطبعة الثانية ١٩٨٨ - الصدر لخدمات الطباعة صـ ٢٤٣
٣٨- قيم جديدة للأدب العربي القديم والمعاصر. د. عائشة عبد الرحمن صـ ٤٣
٣٩- دائرة المعارف الإسلامية صـ ٢٦٦
٤٠- أمراء الشعراء في العصر الجاهلي بتصرف صـ ٣١
٤١- طبقات فحول الشعراء. محمد بن سلام الجمحى، تحقيق: محمود محمد شاكر - السفر الأول صـ ٢٧٩ - ٢٨٠
٤٢- معجم الشعراء . محمد بن عمران المرزباني - دار الجيل بيروت ١٩٩١ صـ ١٢
٤٣- الروائع من الأدب العربي صـ ٢٦٢
٤٤- العصر الجاهلي د. شوقى ضيف صـ ٧٠
٤٥- عيون الأخبار أبي محمد بن عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري - المجلد الثاني - دار الكتب المصرية ١٩٢٨ صـ ٢٣-٢٤
٤٦- الأدب العربي وتاريخه في العصر الجاهلي محمد هاشم عطية صـ ٢٢٣

٤٧- تاريخ الإسلام حسن إبراهيم حسن صـ ٦٥
٤٨- العصر الجاهلي شوقى ضيف صـ ٧٥
٤٩- ملامح الفكر الديني في الشعر الجاهلي د. صادق مكي دار الفكر اللبناني – بيروت الطبعة الأولى ١٩٩١ صـ ١٥٦-١٥٧
٥٠- فجر الإسلام أحمد أمين صـ ٧٩
٥١- الأدب العربي وتاريخه في العصر الجاهلي محمد هاشم عطية صـ ٤٥ – ٤٦
٥٢- تاريخ الجاهلية د. عمر فروخ صـ ١٦٥-١٦٦
٥٣- الأدب العربي وتاريخه في العصر الجاهلي محمد هاشم عطية صـ ٤٧
٥٤- تاريخ الجاهلية د. عمر فروخ صـ ١٦٣
٥٥- تاريخ آداب اللغة العربية . جرجي زيدان المجلد الأول صـ ٣١
٥٦- تاريخ الجاهلية د. عمر فروخ صـ ١٦٤
٥٧ – الأغاني: أبو الفرج الأصفهانى – دار الفكر – بيروت – الطبعة الثانية – الجزء السادس – صفحة ١٣٦ .
٥٨ – الأغاني: أبو الفرج الأصفهانى – دار الفكر – بيروت – الطبعة الثانية – الجزء ٢٤ – صفحة ٢٣٢ .
٥٩- انظر :
- قراءة موجزة في الأدب الجاهلي . قضاياه ونصوصه . د . / محمد عبد الحميد سالم (دار الهاني للطباعة بالقاهرة ١٩٩٨ صفحة ٢٧-٢٨)
- الشعر الجاهلي. قضاياه الفنية والموضوعية. د . / إبراهيم عبد الرحمن (مكتبة الشباب – القاهرة صفحة ١٤ – ١٥).